2-3- المنهج التجريبي

2-3-1- تعريف المنهج التجريبي

يعرفه موريس أنجرس على أنّه طريقة لدراسة موضوع بحث بإخضاعه للتجربة وجعله دراسة قائمة على السببية. ويهدف المنهج التجريبي إلى إقامة العلاقة التي تربط السبب بالنتيجة بين الظواهر والمتغيرات. ولإقامة العلاقة بين السبب والنتيجة فإننا نقوم بإجراء التجربة التي يتم خلالها معالجة متغير أو أكثر بتغيير محتواه عدة مرات، ويسمى هذا بالمتغير المستقل. إنّ هذه العملية تسمح بدراسة أثار المتغير المستقل في المتغير الذي يتلقى تأثيره، والمسمى بالمتغير التابع. مثلا يمكننا تغيير مستوى الضجة (وهو المتغير المستقل) في مرأب ما من أجل دراسة تأثيراته في نجاعة العمل (متغير تابع) لدى الأشخاص الخاضعين لهذا الضجيج(موريس، 2006، ص ص. 103-102).

يعرفه علي عبد الرزاق جلبي بأنّه أسلوب منظم يستطيع الباحث من خلاله التحكم في مختلف العوامل التي يمكن أو يحتمل أن تؤثر في الظاهرة موضوع البحث، بما يمكّنه من جمع البراهين والأدلة على وجود العلاقة بين الأسباب والنتائج المرتبطة بموضوع هذا البحث أو بعبارة أدق يدفعه حبه إلى المعرفة الدقيقة إلى اتباع المنهج التجريبي الذي يقوم فيه: 1- بالتدخل في مجرى الظواهر وتعديل ظروفها؛ 2- التحكم في مختلف العوامل التي يحتمل أن تؤثر في الظواهر؛ 3- جمع الحقائق والبراهين والأدلة؛ 4- استخلاص العلاقات (السببية، الاقتران، الاختلاف) أو التحقق من الفروض(عبد الرزاق جلبي، 2012، ص. 108).

ويصف رجاء أبو علام البحث التجريبي على أنه تسمية لتصميم البحث الذي يهدف إلى اختبار علاقات العلة والمعلول حتى يصل إلى أسباب الظواهر. وإذا صُمِم البحث التجريبي بعناية يصبح أداة قوية جدا في يد الباحث تساعده على اختبار فروضه بطريقة لا تعادلها طريقة أخرى. وقد يبدو البحث التجريبي بالنسبة لبعض الباحثين أكثر تصميمات البحوث تعقيدا، ولكن إذا فهم الباحث قواعده وأسسه فإنه يجده الطريقة الوحيدة التي يحصل منها على إجابات تتعلق بأسباب حدوث المتغيرات، ذلك أنّ البحوث التجريبية هي الطريقة الوحيدة لاختبار الفروض حول العلاقات السببية بشكل مباشر(محمود أبوعلام، 2006، ص. 191).

وينطلق إبراهيم أبراش في تعريفه للمنهج التجريبي من المنهج العلمي الذي يقوم على الملاحظة، والتجربة، والاستقراء، والمقارنة، وهذه العناصر هي مكونات المنهج التجريبي، أي أن المنهج التجريبي هو أقرب

المناهج إلى المنهج العلمي، ويقوم المنهج التجريبي على قاعدة أنّ الأمور المتماثلة تحدث في الظروف المتماثلة. فهو محاولة من الباحث للتحكم في جميع المتغيرات، والعوامل الأساسية المكونة أو المؤثرة في تكوين الظاهرة باستثناء متغير واحد يقوم الباحث بتطويعه أو تغييره بهدف تحديد وقياس تأثيره في العملية. وهذا يعني أنّ التجريب ممكن فقط حين يكون بالإمكان ضبط المتغيرات. وبشكل عام نطلق اسم التجريب على العملية البحثية التي يتحكم فيها الباحث من أولها إلى آخرها، أي أنه يفكر في إجرائها في موضوع معين ومكان معين وزمان معين، وفقا لأهداف معينة، كما أنّه يستطيع إعادة التجريب بعد إجراء بعض التغييرات(أبراش، 2008، ص. 167).

ويعرّف كارلوس سيلفا () التصميم التجريبي (Experimental Design) كأحد أشكال البحث العلمي التي تستخدم لتحديد العلاقة بين السبب والنتيجة لمتغيرين أو أكثر، ولتقييم حجم التأثير الذي حدث. ويعتبر المتغير المستقل (The independent Variable) هو الشي المجرّب أم المعالج، أما المتغير التابع (The dependent Variable) فهو الشيء الذي من المفترض أن يتأثر بتلك المعالجة. ومن الضروري أثناء إجراء تجربة معينة إثبات وجود التابين فيما بين المتغيرات، وإظهار حدوث السبب قبل التأثير. ويمكن أن يتخذ هذا النوع من التحقق شكل التجربة الاصطناعية التي تنفذ داخل المخبر، أو شكل التجربة الطبيعية والتي تحدث في سياق الواقع الحقيقي مع مستوى أقل من التحكم(Carlos, 2008, p. 252).

2-3-2- المنهج التجريبي وبحوث الاتصال

على الرغم من المنهج التجريبي هو أقدم المقاربات في بحوث وسائل الإعلام ولا يزال يوفر ثروة من المعلومات للباحثين في الإعلام ونقاده، فإنّ البحث التجريبي يستخدم بصورة قليلة نسبيا في بحوث وسائل الإعلام، ولكن شعبيته ارتفعت في السنوات الأخيرة. وتشكل الدراسات المسحية 27% من مجموع الدراسات بينما تشكل التجارب 18%. ويعود السبب في زيادة شعبية المنهج التجريبي جزئيا إلى زيادة المقاربة المعرفية للاتصال الجماهيري، وهو منظور مستمد من ميدان على النفس حيث التجارب هي المصدر الرئيسي لجمع المعلومات(ويمر ودومينيك، 2013، ص. 422). ويتم أسلوب التجريب في محيط مختبري يصممه الباحث بطريقة تجعل نتائجه مؤشرات تقريبية عن المحيط الطبيعي الواقعي فالباحث قد يدرس موضوع تأثير مادة إعلامية مسموعة مرئية على قيم الطفل وسلوكياته، فيحدد الأداة على المجموعة التجريبية الأولى دون المجموعة الضابطة الأخرى ثم يقارن نتائجه بين المجموعتين قصد تحديد تأثير الأداة(عزي، 2013، ص. 59).

وقد وجدت دراسة قمحاوي (Kamhawi) وويفر (Weaver) لأكثر مناهج جمع البيانات استعمالا في المجلات الأكاديمية الرئيسية أنّ التجربة تشكل 11% فقط من تقنيات البحث المنشورة في الفترة 1980-1984، ولكنها ارتفعت إلى 21% من التقنيات المنشورة في الفترة من 1995-1999. وبالمقارنة مع منهج المسح فقد بلغ 37% من مناهج جمع البيانات في الفترة 1980-1984، ولكن انخفضت النسبة في الفترة 1995-19 99 لتصل إلى 24%. كما بينت نتائج الدراسة استمرار شعبية مناهج البحث الكمية في مقابل مناهج البحث الكيفية خلال فترة الثمانينات والتسعينات(أنظر: Kamhawi & Weaver, 2003).

ومن خلال مراجعة الأدبيات البحثية في مجال الاتصال حددت ليسلر باكستر (Lesli Baxter) و إيرل بابي (Earl Babbie) ثلاثة أنواع من الدراسات التي استخدمت المنهج التجريبي. النوع الأول يتعلق بتلك الدراسات التي تعمل فيها المتغيرات المرتبطة بالاتصال –و هي متغيرات مستقلة على التأثير على بعض المواقف والإدراكات أو السلوكات – وهي متغيرات تابعة-. وعلى سبيل المثال، يستخدم الباحثون الذين يدرسون عملية الإقناع على مثل هذا النوع من الدراسات التي تعتمد على المنهج التجريبي. إذ يقومون بفحص مميزات الرسالة الاتصالية (مثل مستوى الجاذبية، والاستمالات المختلفة..) لتحديد ما إذا كان يُحدث أي تغيير في اتجاهات المشاركين أوفي معتقداتهم أو في سلوكياتهم تجاه موضوع الرسالة. كما يمكن لهذا النوع من الدراسات أن يتعامل مع بعض مميزات تسليم الرسالة أو نقلها وليس مع محتواها فقط(Baxter & Babbie, 2003, p. 205).

وعلى عكس النوع من الدراسات استخدمت المنهج التجريبي في بحوث الاتصال، والتي يعمل فيها متغير الاتصال أو أحد المتغيرات المرتبطة به، كمتغير مستقل يؤثر على متغيرات غير اتصالية تابعة، إلاّ أن النوع الثاني من الدراسات التجريبية في بحوث الاتصال تعمل فيها بعض المتغيرات غير الاتصالية المستقلة على التأثير في متغير الاتصال أو بعض المتغيرات المرتبطة به وهي متغيرات تابعة. فالباحث ضمن النوع الأول من البحوث التجريبية يتساءل حول كيفية تأثير الاتصال على اتجاهات ومعتقدات وسلوكيات الناس، أما في النوع الثاني من الدراسات التجريبية فهو يتساءل عن كيفية تأثير بعض الظواهر أو العوامل على الاتصال(Baxter & Babbie, 2003, p. 205).

وتعتبر دراسات الأثر من المجالات البحثية في الدراسات الإعلامية التي تثير أهمية تطبيق المنهج التجريبي، خصوصا بعد التوسع في عملية التنظير لبناء الأثر واختباره من خلال النظريات والفروض العلمية الخاصة بدور وسائل الإعلام في تشكيل المعرفة، والغرس الثقافي والتعلم بالملاحظة... وغيرها، التي يمكن اختبار

مفاهيمها في العينات المختلفة من خلال التجريب والضبط التجريبي، خصوصا في التعلم بالملاحظة وبعد انتشار الدراسات الخاصة بالطفولة وعلاقتها بوسائل الإعلام. وما يمكن أن يقوم به الباحثون من بحوث تجريبية في بيئات صناعية (مصطنعة) أو مخبرية في رياض الأطفال والمؤسسات التعليمية للطفل، لقياس تأثيرات وسائل الإعلام ومحتواها مع إجراءات الضبط المنهجي في الروضة أو المدرسة وإمكانية الملاحظة والمشاهدة والتسجيل العلمي نتائجها(محمد، 2000، ص. 207).

2-3-3- مزايا وعيوب المنهج التجريبي

هناك العديد من النقاط الإيجابية التي تدعو إلى استخدام المنهج التجريبي وهي:

1. دليل على وجود السببية: تساعد التجارب على تأسيس السبب والنتيجة. وعلى الرغم من أن بعض الباحثين يجادلون إن كان بإمكاننا حقا أن نثبت رابط السبب والنتيجة بين أي مُتغيرين، فإنّ التجارب هي أفضل مناهج البحوث الاجتماعية لتحديد السببية. فالباحث يسيطر على النظام الزمني لتقديم المُتغيرين، وبالتالي يجعل من المؤكد أن يسبق السبب فعليا النتيجة. بالإضافة إلى ذلك يمكن للباحث السيطرة على الأسباب المحتملة الأخرى لمتغيرات قيد الدراسة(ويمر ودومينيك، 2013، ص. 422).
2. التكرار: تصمم التجارب بطريقة تسمح بإعادتها، مع افتراض بأن الإعادة لن تؤدي إلى نتائج مختلفة(سوتيريوس، 2017، ص. 329).
3. السيطرة (التحكم): هي أحد مزايا المنهج التجريبي، فالباحثون يسيطرون على البيئة، وعلى المتغيرات وعلى الأفراد المشتركين. ويسمح البحث المختبري للباحثين عزل الوضع الاختباري عن التأثيرات المنافسة للنشاط الطبيعي. وللباحثين الحرية في بناء البيئة التجريبية بأية طريقة تقريبا. كما تتيح الدراسات المختبرية للباحث أيضا السيطرة على أعداد وأنواع المتغيرات المستقلة والتابعة التي يتم اختيارها والطريقة التي يسيطر بها على هذه المتغيرات. ويتيح المنهج التجريبي أيضا للباحثين السيطرة على الأفراد (أفراد الدراسة) بما في ذلك السيطرة على عملية الاختيار، وتحديد في أي المجموعتين يكونون، المجموعة الضابطة أم المجموعة التجريبية، والتعرض للمعالجة التجريبية(ويمر ودومينيك، 2013، ص. 423).
4. الدقة: يؤدي التخطيط الصارم والتأكد من حالة المتغيرات وصدق الطرائق وثباتها، إلى درجة عالة من الإتقان في جمع خطوات البحث.

5. السهولة: إن حجم العينات والإعداد الدقيق للتجربة وتصميم البحث المفصل يجعل من التجارب أسهل طريقة للبحث(سوتيريوس، 2017، ص. 329).
6. التكلفة: قد تكون تكلفة التجربة منخفضة عند مقارنتها بمناهج البحث الأخرى. فعلى سبيل المثال يستطيع باحث يدرس الإشهار دراسة تأثير تصميمين مختلفين للإشهار باستخدام تصميم تجريبي فقط مع 40–50 مشاركاً. واختبار مقارن يجري في الميدان سيكون مكلفا أكثر بكثير(ويمر ودومينيك، 2013، ص. 423).
7. التكرار: وأخيرا، يسمح المنهج التجريبي بالتكرار. ونموذجيا، فإنّ شروط الدراسة موضّحة تماما في وصف التجربة، مما يجعل تكرارها من قبل الآخرين أكثر سهولة. وفي الحقيقة، فإنّ التجارب الكلاسيكية كثيرا ما تُكرّر، وأحيانا تحت ظروف مختلفة قليلا، وذلك لضمان أن نتائج الأصلية لم تكن فريدة بطريقة ما(ويمر ودومينيك، 2013، ص ص. 424–423).

وهناك العديد من النقاط السلبية للمنهج التجريبي منها:

1. الاصطناعية: أكبر مشكلة في استخدام هذا المنهج هي الطبيعة المصطنعة لبيئة التجربة. ويجب وضع السلوك قيد الدراسة في ظروف تتحمل السيطرة الصحيحة. وللأسف أن الكثير من السلوك محل اهتمام الباحثين في الدراسات الإعلامية يتغير عند دراسته خارج بيئته الطبيعية. ويدّعي النُقاد أن الظروف المعقّمة وغير الطبيعية المنشأة في المختبر تُعطي نتائج لها القليل من التطبيق المباشر في أوضاع العالم الحقيقي، حيث يتعرّض المشاركون باستمرار إلى مُحفزات متنافسة(ويمر ودومينيك، 2013، ص. 424).
2. الضبط: قد لا تتيح التجارب في بعض الأحوال درجة من الضبط تكفي لاستبعاد التأثيرات غير المرغوبة فيها خارج العوامل المستقلة.
3. التمثيل: تكون العينات صغيرة عادة ولا تكفي لتوليد نتائج ممثلة(سوتيريوس، 2017، ص. 330).
4. تحيّز الباحث (الذي يجري التجربة): من الممكن أن تتأثر التجارب بتَحيُّز من يجريها. وقد اكتشف روزنتال (Rosenthal) وجاكوبسن (Jacobson) أنّ الباحثين الذين يقال لهم أي النتائج مُتوقعة تكون نتائجهم أكثر انسجاما مع فرضية البحث من الباحثين الذين لم يبلّغوا ما يجب عليهم توقّعه(ويمر ودومينيك، 2013، ص ص. 425–424).

5. النطاق المحدود: وأخيرا، فإنّ بعض الأسئلة البحثية ببساطة لا تصلح للمنهج التجريبي. وكثير من مواضيع البحث التي تثير اهتمام الباحثين في الدراسات الإعلامية، هي تلك التي تتعلق بالسلوك الجمعي ربما لملايين الناس. والتجارب من هذا الحجم أضخم بكثير من إمكانية إجرائها(ويمر ودومينيك، 2013، ص. 425).

2-3-4- خصائص المنهج التجريبي

حدد رجاء أبوعلام ستة خصائص للبحوث التجريبية وهي:

1- التكافؤ الإحصائي بين أفراد المجموعات المختلفة وعادة ما يتم ذلك بالتعيين العشوائي للأفراد؛
2- مقارنة مجموعتين أو أكثر من الأفراد؛
3- المعالجة المباشرة لمتغير مستقل واحد على الأقل؛
4- قياس كل متغير تابع؛
5- استخدام الإحصاء الاستدلالي؛
6- تصميم البحث بطريقة توفر أقصى ضبط ممكن للمتغيرات الخارجية (المتغيرات الدخيلة).

والبحث الذي تتوفر فيه كل الخصائص السابقة هو بحث تجريبي خالص، يُمكّننا من الوصول إلى العلاقات السببية بين المتغيرات عند تفسير النتائج(محمود أبوعلام، 2006، ص.205).

2-3-5- خطوات البحث التجريبي

يتضمن المنهج التجريبي كلا من التعامل (المعالجة) والسيطرة. وفي أبسط أنواع التجارب يقوم الباحث بالتعامل (المعالجة) مع المتغيّر المستقل، ومن ثم يلاحظ ردود المشاركين على المتغيّر التابع. ورغم أنّ كل تجربة مختلفة، فإنّ معظم الباحثين متفقون على أنّ الخطوات الثمانية التالية يجب اتباعها عند إجراء أي تجربة:

1- اختيار الوضع: كثير من التجارب أفضل ما يكون إجراؤها هو في المختبر تحت التحكم الكامل من الباحث. وبعضها أفضل ما يكون إجراؤها في أوضاع طبيعية حيث يكون للباحث، إن كان له أصل، القليل من السيطرة على وضع التجربة.

2- اختيار تصميم التجربة: يعتمد التصميم المناسب على طبيعة الفرضية أو السؤال البحثي، وعلى أنواع المتغيرات التي يتم التعامل معها أو قياسها، وعلى توفّر المشاركين، وعلى مقدرا الموارد المتاحة.

3- تفعيل المتغيرات: في المنهج التجريبي يتم عادة تفعيل المتغيرات المستقلة بحسب التعامل (المعالجة) التي اتخذ لإنشائها. ويتم تفعيل المتغيرات التابعة ببناء موازين أو قواعد لتصنيف الملاحظات على السلوك.

4- تقرير كيفية تناول المُتغير المستقل: لمعالجة المتغير المستقل (أو المتغيرات) يتم تطوير مجموعة محددة من التعليمات، أو الأحداث، أو المحفزات لتقديمها إلى الفرد موضوع التجربة. وهناك نوعان من المعالجة: المباشرة والممرحلة.

5- اختيار المبحوثين وتوزيعهم على حالات التجربة: من أجل ضمان الصحة الخارجية، يجب أن يتم اختيار المبحوثين التجريبيين بشكل عشوائي من المجتمع موضوع البحث. وجميع التقنيات المختلفة لاختيار العينة هي مناسبة لاختيار المبحوثين في الدراسات التجريبية.

6- القيام بدراسة أولية (استكشافية): الدراسة الأولية على مجموعة صغيرة من المبحوثين تكشف المشكلات وتسمح للباحث بإجراء فحص (المعالجة)، وهو اختبار لتقرير ما إذا كانت المعالجة مع المتغيّر المستقل لها فعليا التأثير المقصود.

7- إجراء (إدارة) التجربة: بعد تصحيح المشكلات وفحص (المعالجة)، تبدأ المرحلة الرئيسية من جمع البيانات. ويمكن تنفيذ (المعالجة) التجريبية مع أفراد أو مجموعات. فيقاس المتغيّر التابع، وتستخلص معلومات من المبحوثين.

8- تحليل البيانات وتفسيرها: يتم تدوين الدرجات التي يُسجلها المبحوثون على المتغيّر (المتغيرات) التابعة وتحليلها. ويمكن استعمال الكثير من الأساليب الإحصائية لتحليل نتائج التجارب(ويمر & دومينيك, 2013, 428-425 .pp).